الفصل الأول

المثل الشعبي والمرأة الفلسطينية

منى أسعد

لعلَّنا نصيب كبد الحقيقة، إذا ما ذهبنا إلى القول بأن مجتمعنا أبويّ، شرقي، متخلِّف، تغدو فيه الأمثال الشعبية هي الأكثر تأثيرًا، وتأصلاً في الحياة العامة، بل يمكن أن ترقى إلى حدود الدستور، والقانون الآمر، الناظم لحياة الأفراد الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية، طالما بقيت العلاقات الاجتماعية خاضعة لهيمنة الأفكار المسبقة، ذات الطابع الأسطوري، البعيدة عن مقتضيات العِلم، والمنطق، والتجربة، وبقيت السلطة المحلية عاجزة عن القيام بدورها في حماية المجتمع، والنهوض بحاجات، ومتطلبات أبنائه، وتطويرها، الأمر الذي يدفع الأفراد إلى التمسك بالأمثال الشعبية، واعتناقها، والإذعان لها، حتى يغدو هذا التمسك جزءًا من التمسك بالهوية، والتاريخ الوطنيين، وبالكيان الاجتماعي، في آن.

تتجلى أهمية الأمثال الشعبية، بأنها جملة المفاهيم، والمعتقدات، والطقوس، المتناقلة من جيل إلى جيل، فهي بمثابة المفاهيم المقنَّنة، المتَّفق على صحَّتها، والتي تلخِّص شرحًا طويلاً في الحوار، أو تختزل حدثًا تاريخيًا، أو تشكِّل خلاصة تعليمية يومية، تتناول مجمل نواحي الحياة[1]، بعبارات مختزلة، وصياغة لغوية قوية، تدغدغ شغاف القلوب، وتتغلغل في تلافيف المخ. وعلى ذلك، فإن مثلاً شعبيًا واحدًا، لا تزيد عدد كلماته عن الخمس، قد يطبع في الذهن صورة للمرأة، تعجز عن مسِّها

(١) فرج الله صالح ديب، الدلالات التاريخية والاجتماعية لأمثال شعبية جنوبية، السفير، (بيروت) ٢٢/ ١٢/ ١٩٩٥.

خمسة كتب كاملة [1]؛ رغم أن ما يتسلَّح به المثل هو منطق التجربة فحسب، حقًا كانت أم باطلاً.

من اللافت للنظر أن الأمثال الشعبية، في طرحها لموضوعة المرأة، نراها تناولت المرأة ليست كمشكلة بين جنسين، يتوقف على حلِّها تطور المجتمع، واستمرار الحياة، إنما باعتبار المرأة مشكلة، في حد ذاتها، وعلى الرجل أن يُجيد التعامل معها. فهنَّ «طويلات شعور الإنسانية بأوجهها المختلفة. وهذا يؤدي بدوره إلى خلق علاقات اجتماعية وسياسية جديدة. لاتعود وتقتصر على نطاق الأسرة، وحدها، بل تتعداها لتشمل النوع الإنساني كله»[2].

إن اضطهاد المرأة في المثل الشعبي، وامتهان كرامتها عبر مدلولاته، لم يأتِ عبثاً، بل نتيجةً لانتقال خط النسب الأُمي، إلى خط النسب الأبوي، أو كما عبَّر عنه إنجلز بأنه «هزيمة تاريخية عالمية للجنس النسائي»[3]، حيث تولى الرجل دفة القيادة، وزُجَّت المرأة إلى البيت، مستذَّلةً، مستعبدةً، لرغائب زوجها، ومختزَّلةً إلى مجرد أداةً لإنتاج الأولاد.

ليس مرد هذا كله إلى اختلافات بيولوجية، أو سيكولوجية، بين الجنسين، إنما مرده إلى تغيير الموقع الاقتصادي للمرأة، والرجل، وتقدُّم دور الرجل الاقتصادي، نتيجة التقسيم الأول للعمل، وظهور الملكية الخاصة لأدوات الإنتاج، وما رافقها من ظهور للطبقات الاجتماعية، وبالتالي الاستغلال الطبقي. الأمر الذي استدعى امتلاك المرأة، والأولاد، باعتبارهما قوة إنتاج رخيصة.

---

(١) عابد عبد الزريعي، المرأة في الأدب الفلسطيني الشعبي، دمشق، منشورات الهدف، ط١، ١٩٨٦، ص٣٣.

(٢) الأمثال مأخوذة عن: عبد الكريم الحشاش، الأسرة في المثل الشعبي الفلسطيني، دمشق، المطبعة العلمية، ط١، ١٩٨٨.

(٣) فريدريك إنجلز، أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة، موسكو، دار التقدم، د. ت.، ص٧١.

حتى تتم عملية الامتلاك هذه، وتستمر، كان على الرجل - صاحب العمل- ومن ورائه قوانين القهر التي فرضتها الفئة المتسلِّطة، لمصلحتها الذاتية، البحث عن غطاء فكري، أيديولوجي، محكم، يبرر استغلال الرجل، وتسلُّطه على المرأة، واستكانة الأخيرة، وامتهانها من قِبَل الرجل، وكأنها الطبيعة الأزلية لها. مما يُفيد، في نهاية المطاف، في خلق قيدٍ نفسي، يُقيِّد المرأة من داخلها، ويدفعها للقبول بدور المقهور المضطهد، الراضخ، باطمئنان، لقاهره[1]، ويخلق من الرجل سيدًا، آمرًا، مالكًا للمرأة، وأولادها.

على ذلك نُسِجت الأساطير، والخُرافات، والأمثال الشعبية، وقد اتَّفقت جميعها على اضطهاد المرأة، في كل شيء؛ في عقلها، ودينها، وحظِّها، وجسدها، ومشاعرها، وإنسانيتها. فكانت النتيجة أن تشرَّبت المرأة هذه الأفكار، ثم أسهمت في تكريسها، وإعادة بثها في نفوس الأجيال، باعتبار أن المرأة متلقية، وصانعة، لثقافة المجتمع، مثلها، مثل الرجل. وبذلك غدت المرأة تقاوم تحرُّرها، وتُرسِّخ البنى التسلطية المتخلفة التي فُرِضت عليها، وتعممها على الآخرين. فتغرس فكرة التبعية، لدى البنات، وفكرة التسلُّط، لدى الصبيان.

المجتمع الفلسطيني، رغم خصوصيته، لم يخرج عن هذا الإطار، فهو مجتمع ذكوري، يرى في المرأة موضوعًا، وليس ذاتًا، فهي موضوع للمتعة الجنسية، أو الزواج، أو لإنجاب الأولاد، قوة العمل، وتربيتهم، وبالتالي فالمرأة العربية، عمومًا، والفلسطينية، على وجه الخصوص، رغم تضحياتها الجسام، وعطائها الكبير، فإنها لاتزال ترزح تحت ركام كمٍ ليس هينًا، من العادات، والأعراف، والتقاليد، تعود إلى مرحلة المجتمعات العبودية، التي تنفي عنها الصفة الإنسانية، فتجردها من حق التصرف، واتخاذ القرار بمصيرها، أو بمصالحها، لذا لابد من وصي، حليف،

(١) الزريعي، مصدر سبق ذكره، ص٤٦-٤٧.

يتصرف باسمها، ويوجه خطاها.

ولأن المرأة «ناقصة عقل»، فعلى الرجل الاحتراس منها، وعدم استشارتها في أي أمر: «إسمع للمرة، ولا تأخذ برأيها»؛ و«لا تأخذ رأي المَرَه، ولا تتبع الحمار من ورا»! وإمعانًا في النصح، تعمد الأمثال الشعبية إلى إهانة الرجل، في حال استشار امرأته، في أمرٍ ما؛ فتقول: «يا ناوي ع خراب بيتك، إعطي سرك لمرتك». وأمثلة أكثر صراحة، ووضوحًا، وامتهانًا مثل «خرا ابن خرا، اللي بيشاور المرة»!

تعكس هذه الأمثال دونية المرأة، في الوجدان الشعبي؛ لدرجة إهانة الرجل، في حال تجاوزه للوجدان الشعبي، ومحاولته التعامل باحترام مع المرأة، أو رأيها، ولو كانت على صواب. لأن محاولة الرجل هذه، هي خروج عن المألوف، الذي يجب أن يبقى؛ فالمرأة «كائن ثرثار؛ غيور؛ مجبول بالخيانة، والمكر، والحيل، مسكون بالكره، والأنانية، والطمع»! لذا يجب ألا يؤمن جانبها.

المرأة الثرثارة: تتعرض المرأة، منذ نعومة أظفارها، إلى عملية تبخيس لجهدها، فتغرس في نفسها قناعة، بأن العلم، والعقل، أمران ثانويان، طارئان، وأن قيمتها في نجاحها كزوجة، مقبلة، ليس إلا. الأمر الذي يحوِّل اهتمامها من مجالات العلم، والإبداع، والخلق، والابتكار، والإنتاج الاجتماعي، إلى المظاهر المثيرة، ويحول توجهها إلى ميادين الاستهلاك، والظهور، التي أُلصقت بطبيعة الأنثى، كمجالات لتحقيق ذاتها. وبعد أن يبخس كيانها، إلى هذا القدر، نرى الرجل، المتسلط، يتخذ من هذا التبخيس، حجة، وسلاحًا، يحاربها به، ويطمس كيانها، أكثر، فأكثر، في التبعية. ذلك أن هذا الكيان الضحل الانفعالي، الذي لا يعرف الجدية، ولا يكترث، إلا بالتفاهات، لا يمكن الاطمئنان إليه، والثقة به[1].

(١) د. مصطفى حجازي، التخلف الاجتماعي/ مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور، بيروت، معهد الإنماء، ط١، ١٩٧٦، ٢٢١-٢٢٣.

لكن الأكثر خطرًا، هو تجاهل تقدير عمل المرأة، سواء القاطنة في الريف، رغم ما يقع على كاهلها من أعباء منزلية، وأعمال زراعية، تستهلك كل إمكاناتها، ووقتها؛ أو تلك القاطنة في المدينة، العاملة، أو الموظفة، التي تعود لتعمل في منزلها، عددًا موازيًا من الساعات، دون مقابل، في تدبير شؤون بيتها، والعناية بأولادها. فيما ينصرف الرجل للهوه، ومتعه، في المنزل، أو خارجه، دون أي إحساس بالإثم، أو المسؤولية.

حتى يدفع الرجل أي تهمة عن نفسه، نجده يمعن في اختزاله للمرأة، وتبخيس عملها، مدعيًا بأنها تقضي جُل وقتها في الثرثرة؛ سواء في العمل، أو في البيت؛ وعلى ذلك نجد الأمثال: «أم لسان، غلبت كل النسوان»؛ و«يا ناوي ع خراب الديار، إعطي سرك للنسوان»! وهذه الثرثرة كثيرًا ما تؤدي إلى الخصومات، والمشاكل؛ «الدنيا بلاها ملاها، وأكثر بلاها من نساها»؛ و«ومن سدت تُمها(*)، سترت عيبها، وعيب أُمها»؛ و«ديوان تنين، خرَّب بيتين»!

المرأة الغيورة: المرأة أكثر استسلامًا لعواطفها، وأحاسيسها، لذا كثيرًا ما ترتكب الأخطاء والهفوات، بسبب غيرتها؛ وفي هذا يقول المثل: «غيرة المَرَه، مفتاح طلاقها». إلا أن الأمثال ترى في هذه الغيرة جانبًا إيجابيًا، أحيانًا، وتحديدًا في موضوع الحمل والإنجاب، كونه أهم دور خُلقت المرأة من أجله: «فلولا الغيرة، ماحبلت الأميرة»؛ و«ثلثين الحبل غيرة».

المرأة الخائنة الماكرة: هي ناقصة وفاء؛ «فالمرأة إذا أحبت يوم، كرهت أربعين يوم»؛ «لا تأمن للمره، وإن صلَّت، ولا للخيل، وإن طلَّت، ولا للشمس، وإن ولَّت»؛ و«النسوان، مقاليع إبليس»؛ و«مثل الحية، بتقرص وبتتخبا»؛ و«الشيطان، وصَّى النسوان»؛ و«البنت، إذا حطت إيدها على ركبتها، طلعت حيلتها»؛ و«كيد

(*) تُمّها. فمها، والضمير يعود على المرأة.

النسوان، غلب كيد الرجال»؛ و«دموع الفاجرات، حاضرات»؛ و«دموع العواهر، نواهر».

لا تؤكد هذه الأمثال على اضطهاد المرأة، ودونيتها، فحسب، بل تجردها من إنسانيتها، أيضًا، بتحويلها إلى كائن أكثر شرًا من الشيطان، يجب الاحتراس منه، وزجره، وقمع وسوساته. وتبرر للرجل فعل قمعه العنصري للمرأة، لذا فالرجل، عندما يضطهد المرأة، لا يضطهد إنسانًا، وعندما يمتهنها، لاينال من حرمتها، وكرامتها، بل هو، بكل بساطة، يحارب الشر، ويسيطر على المكر، ويقيِّد وسوسات الشيطان، وبالتالي فهو بهذا يمارس دوره المأمول، بالدفاع عن الاستقرار الاجتماعي، ويسبغ على سلوكه القمعي، ضد المرأة، مشروعية دينية، في آنٍ.

رغم أن حقيقة الأمر تكمن في محاولة الوجدان الشعبي، الهرب من الاعتراف بذكاء المرأة، وسرعة بديهتها، وحسن تصرفها؛ وهذا كله يؤكد رجحان العقل، لا نقصانه، فإن اضطرار المرأة لاستثمار ذكائها بالحيلة، والدهاء، مرده إصرار الرجل على فوقيته، وعدم إقراره بحق المرأة في التفكير، والمشاركة، وبالتالي، فإن انتهاجها هذا السبيل، ما هو إلا وسيلة دفاع سلبية، اعتمدتها المرأة، من أجل انتزاع بعض حقوقها الإنسانية، في مجتمع لا إنساني، يستغلها، ويحظر عليها المطالبة باحتياجاتها الطبيعية، وفي مقدمتها الحب، واختيار الزوج.

المرأة والحب: نلمس في الأمثال تعبيرًا مدهشًا «للحب»، «من حب حجر، عبده»؛ و«حب من تحب؛ ولو كان قرد بيدب»؛ و«بصلة المحب خروف»؛ و«ضرب الحبيب زبيب، وحجارته قُطِّين». فالحب عاطفة عمياء، لا دخل للعقل فيها، تجتاح الإنسان، وتدفعه، أحيانًا، إلى حب عدوه، فيقال: «إيش دخَّلك دار عدوك، قال حبيبي فيها».

ولأنها عاطفة تتملك المشاعر، والأحاسيس، فلا يستطيع أحد حمل آخر على

حب من يريد. هنا يُقال: «كل شيء عند العطار، ما عدا حبني غصب».

إن أمثالاً على هذه الدرجة من تقديس الحب، واحترام نُبل عواطفه، تدفع إلى الاعتقاد بأنها ترفض إخضاع الحب لأية عملية مساومة، أو بيع، أو شراء. بمعنى آخر، ينتفي فيها اضطهاد المرأة، وتتساوى بحقوقها مع الرجل. لكننا لو أمعنا النظر طويلاً، لوجدنا أن الأمثال الشعبية، في إباحتها للحب، تبيحه للرجل، فحسب؛ السيد، صاحب الحق في الانتقاء، أما الفتاة، فلا، لأن «النسوان بسبع شهوات»؛ والمرأة لا تستطيع التحكم بغرائزها، فهي «ناقصة عقلٍ، وناقصة خُلق». ومع ذلك فهي الوصيَّة على شرف العائلة، ومكانتها الاجتماعية. ولحل هذا التناقض الغريب، كان لابد من حارس يحميها، هو، بلا شك، الرجل. «فالبنت بلا رجال، بستان بلا سياج»، وهي «مثل مدقَّة الباب، مين كان بيدقها»، لكن، هل، حقًا، تحتاج المرأة إلى من يحميها؟

الواقع أن المجتمع الذي جرَّد المرأة من العِلم، والعمل؛ والتفكير السليم؛ دفعها إلى الانزواء تحت عباءة الرجل، باعتباره الحامي الجسدي، والمالي، لها. فمن الطبيعي، والحالة هذه، أن يطالبها بالثمن، أي ولاءها التام له، وانكماشها في ظله؛ فنجده قد أمعن في وضع الضوابط، والكوابح، والأقفال عليها، ووضع مفاتيحها في يده، وحده، فمنعها من الخروج من البيت، خوفًا من إدراكها أنها إنسانة قائمة بذاتها: «فالبنت إن بيَّن سِنها، إلحقها، ولو في حضن إمها»؛ و«البنت إن بيَّن نابها، إلحقها ولا تهابها». حتى إذا فكَّرت المرأة في مقاومة تلك الوضعية المقيدة، وكسر الأغلال، والخروج إلى العمل، فإنها ستجد الأمثال لها بالمرصاد: «رِجْل دارت، يا سرقت يا عارت»؛ و«اللي تمد إيدها، تمد رجلها».

الحق أن المرأة لم تصل إلى حالة الرضوخ، بشكل تلقائي، إنه نتيجة عملية تشريط، منظمة، ومستمرة، تبدأ منذ الطفولة الأُولى، حيث تحاصر الفتاة، بما لا يترك لها

منفذًا، أو متنفسًا، خارج القواعد المحددة لها. فاضطهاد البنت، وكبت طاقاتها الحيوية، إلا فيما يخدم وظائف محددة لها، إجتماعياً، وأُسَرياً، وعدم الاعتراف بحقوقها، كلها إجراءات يمارسها الأهل، والمؤسسات الاجتماعية، والدينية المحافظة، تؤدي إلى تدمير البُنى النفسية للفتاة، وتحويلها إلى إنسانة مستلبة، وخانعة، وعلى ذلك، نجد «دلِّل بنتك، بتخزيك»؛ و«مين خرَّب البنت، غير أنا وأنت»!

بيد أن الأمثال الشعبية تحرص على إلقاء تبعة الخوف، والاستكانة، والاستلاب، لدى الفتاة، على عاتقها، فنجد «ثلثين التعريص، حيا»؛ و«طلعت المستحية، من الصبح للعشية». كل هذا لتبقى المرأة خاتمًا، مطواعًا، في يد الرجل، أخًا كان، أو أبًا، أو زوجًا، يفرض عليها ما يشاء، ويحجب ما يريد، وأول ما يحجبه، هو حقها في الحب، بل يضع العقوبات على من تتجرأ، وتحب، عقوبات تصل إلى حد الذبح المعنوي، أو حتى الجسدي، أحيانًا. وقد جاءت القوانين لتحمي هذا الحق للرجل، رغم أن جناية الشرف هي، ببساطة، فعل استرداد واعٍ للمرأة، التي قررت أن تكون لذاتها، أو التي غُرِرَ بها. فعلٌ رافضٌ لوضعيتها، كأداة تملكها العائلة، وتنتقل ملكيتها لقاء مصلحة، أو لقاء مبلغ من النقود، والمتاع، من الأب، أو الأخ، أو العم، أو الخال، إلى الزوج ... جناية الشرف، بقدر مأساويتها، بقدر ما تكشف عن القهر الذي تتعرض له الفتاة[1]، بوصفها أداة تفريغ شحنة القهر، والعجز عند الرجل، حيث يُسقط الرجل عليها القهر، الواقع عليه، والعجز، الذي يعيشه، مما يُتيح له الاحتفاظ بمظهر القوي، والسيد أمام الآخرين.

إلا أن الوجدان الشعبي، من خلال مفرداته، حوَّل المرأة، عبر سنين الإرهاب المادي، والنفسي، إلى إنسانة، يسكنها الخوف، ويُحرِّك خطواتها الرعب، من إقامة أية

(١) المصدر نفسه، ص٢١٢.

علاقة حب، قد تودي بحياتها: «فالحب، والحبل، مثل الركوب على الجمل»، لا يمكن إخفائهما.

تحت وطأة هذا الواقع، تتحول المرأة إلى أسطورة، محاطة بهالة من الغموض، فتصبح سرًا غامضًا، بالنسبة للرجل، وشغله الشاغل كشف خبايا ذلك السِر، فيطارد النساء، ويستبيح الحب معهم، معللاً ذلك، بأنه أكثر تفهمًا للأعراف، وأكثر احترامًا لحق المرأة في الحب. مع أن حقيقة الأمر، غير ذلك. فإنسان العالم الثالث، مقهور، مقموع، مضطهَد، يعيش خائفًا على غده. فنجده، وإن كان متعلمًا، إلا أنه يعيش بذهنية غير علمية، تُعَشعِش فيها الخرافة، ويتملكها الاستلاب. لهذا فرجل اليوم، هو الوريث الشرعي، لأول عبد اضطهد المرأة، بعدما أقنعها بضرورة بقائها في البيت، ليقدم لها هو الحماية، والرعاية، والمال. هذا الرجل، بهذه السيكولوجية، يجرِّد المرأة من جميع جوانب شخصيتها، عبر علاقته معها، بحيث لا يبقى منها سوى المرأة، الجسد، لذا فإن رؤيتها، والحديث معها، لا تغني إطلاقًا، عن امتلاك جسدها[1].

د- المرأة والزواج: تحت وطأة واقع اقتصادي، واجتماعي متخلف، تضمحل فيه سيادة العقل العلمي، وبسبب دور المرأة الاقتصادي فيه، فإنها تغدو أكثر استجابة للتفكير الخرافي، وأكثر إيمانًا بحاجتها للرجل، بل أكثر استجابة لمنطق الرجل، بأن المرأة مجرد جسد، لا تملك حق التصرف فيه؛ جسد محكوم بالقدرة على الإمتاع، والإشباع، والإنجاب، أو عدمها. وعلى هذا، فما أن تبلغ الفتاة سن الزواج، حتى يبدأ السعي لتزويجها: فـ«البنت، ما إلها إلا الستر، أو القبر»؛ و«سترة البنت، تزويجها»؛ و«إن جرى دمها، إعطيها للي بيكفل همَّها»؛ و«جُوز عُور، ولا القعود». وأمثال كثيرة تدعو إلى الإسراع بتزويج البنت، خشية أن تكبر، ويبتعد عنها

(١) الزريعي، مصدر سبق ذكره، ص٧٣.

الخطَّاب، فتبوُّر؛ وفي هذا أزمة اقتصادية، واجتماعية، للأهل. «خذي النوري، ولا تبوري»؛ و«أول النصيب، لا تفوِّته».

رغم معرفة الأهل بأن علاقة الزواج غير آمنة، وغير مستقرة، والمثل يقول: «يا مآمنة للد حال، زى المي بالغربال». فإنه لا بد للفتاة من الزواج، والحياة في كنف رجلٍ ، بصه نها، وينفق عليها. وكثيرًا ما نجد الفتيات، أو أهلهن يرددون: «ظل راجل، ولا ظل حيطة»؛ و«الجوز رحمة، ولو أنه فحمة»؛ و«اللي جوزها معها، يدور القمر بأصبعها».

هنا على الأهل بأن يختاروا زوجًا مناسبًا لإبنتهم، لأن الأمثال تقول: «أن دشَّرت البنت ع خاطرها، لبتاخد طبَّال، أو زمَّار». وفي هذا تأكيد على حرمان البنت من حقها بالاختيار، لعجزها، وقلة إداركها. فلابد لها من وصي، يهتم بشؤونها.

يحاذر الأهل، دومًا، من تزويج ابنتهم لرجلٍ نذل، أو أرمل، خشية أن تعود إليهم مع أولادها، فتصبح عالة عليهم، تحتاج إلى من ينفق عليها، دون أن يكون لها قيمة، مالية، أو اجتماعية، يمكن الاستفادة منها. وعلى ذلك نجد المثل «تحت التراب، ولاعند الكلاب»؛ و«سافري لعكا، وإرواد، ولا تاخدي رجَّال عنده اولاد».

أما بالنسبة للرجل، فإن له شروطًا عدة، أكثر دقة، وتحديدًا، لأنه يرى في المرأة ضرورة اقتصادية، وجسدية. فهو من سيدفع الثمن؛ لذا لابد أن يحسِن الانتقاء، ليفوز «ببضاعة جيدة»، هي المرأة؛ تعادل الثمن المدفوع. كأن تكون جميلة الوجه والقوام، قوية البنية، تستطيع الإنجاب، وتربية الأولاد، ومساعدة الزوج في العمل، وخدمة أهله، هنا نجد الأمثال الشعبية تقدم للخاطب طرق الانتقاء الحسن. وإن كانت تتعرض في الرجل أن يكون مستعدًا لهذا الموقف، وقادرًا على تحمل أعبائه المادية، وبخاصة دفع مهر خطيبته، من جيبه: «اللي ما بيقدر على الحمرا وعليقها،

يزول عن طريقها»؛ و«اللي بيحط فلوسه، بنت السلطان عروسه»؛ و«اللي بيجوّزه أبوه وأمه، الطلاق عليه هو». بعد ذلك، على الرجل أن يبحث عن عائلة الفتاة، وأصلها، ثم عن جمالها، وعمرها.

١ -عائلة الفتاة: في مجتمع تهيمن عليه مفاهيم العائلة، في المجتمع الزراعي، وأهمية حجمها، سواء للقيام بالعمل الزراعي، أو لمناطحة العائلات الأُخرى، على النفوذ والسيادة، تُختصر المرأة إلى أداة للمصاهرة؛ «كوُن نسيب، ولا تكون قريب»؛ و«ثلثين الولد لخاله». بمعنى أن المرأة، في هكذا مجتمع، تحتاج إلى أكثر من الانتساب لعائلة كبيرة، لتحظى بزوج ذي نفوذ، إذ يترتب على المرأة أن تتحمل تبعة أخطاء أخوالها، وخالاتها، وأي من أفراد أُسرتها. هذا بالإضافة إلى ضرورة وجود النَسَب القوي، والعائلة الكبيرة، والنفوذ، والمال؛ حتى تكون المرأة مرغوبة من الرجال. رغم أن الأصل، والنسب، شرط يطلبه الرجل، لا يد للمرأة فيه: «خذ الأصايل، ولا تهاب الفصايل»، أي لا يقف الشاب عند تحديد مقدار المهر؛ فالأهم هو: «بنت الحسب، والنسب»؛ و«الأصل زينة، اللي بلاه حزينة»، و«القرش عمره ما غطى الشرش(*)»؛ و«دوِّر لابنك عن الأصل، ودوِّر لبنتك عن النفل»، و«اللي ما بتزيِّنها خدودها، بيزينها جدودها». وعلى هذا، فالمرأة ذات الأصل المتدني، لا تستحق مهرًا عاليًا، أو رجلاً مقتدرًا. وإن حصل، وتزوج منها شاب، فإنه سرعان ما يندم، ويردد: «يا مسترخص اللحم، عند المرق تندم»، و«خود بنات الخيِّرين المناصب»؛ و«بنت الغني، غنية، وبنت الفقير، فقيرة».

٢- السن والجمال: أمام ظمأ الرجل الجنسي، ورغبته في اقتناء بضاعة تروي هذا الظمأ، نجده يبحث عن المرأة ذات الجسد الممشوق، والبشرة البيضاء، والوجه الأحمر، حتى لو كانت بدون عقل، فهي دمية جميلة، يتباهى بها أمام أقربائه، وأقرانه:

(*) الشِرش = الجذر.

«خذها بيضة ولو مجنونة»، و«خوُد الحلو، واقعد قباله، وإن جعت، شاهد جماله».

من ناحية ثانية، نجد المرأة منساقة إلى علاقة غير إنسانية مع الرجل، علاقة تحكمها أعراف السوق، من عرض وطلب، فتبذل جهدها للفت أنظار الرجال إليها، حتى تفوز بواحدٍ منهم، وياحبذا أفضلهم. من هنا كان للزينة، والتبرج، دور مهم في حياة المرأة: «البنت بلا حَلَقْ، دالية بلا ورق»؛ و«البنت الحلوة، نصف مصيبة». ولأن المجتمع يميِّز بين الفتاة البيضاء، والسمراء، ففضلاً عن الأولى، نجد الثانية تلهث في البحث عن سبيل تبييض بشرتها، وتجميل وجهها، وملامحها، كما لو كانت سلعة، يتم تزيينها، لتلفت نظر الزبون، الذي يشتريها، في حين يقول المثل: «اللي مش بيضة خلقة، ما بيبيضها فلقة». وتنصح الزوج بعدم الزواج من السمراء، لأنه «مهما اشتغل زوج السمراء، ما بيشتريلها حمرة، وبودرة». لكن، وبسبب حاجة الرجل إلى مساعدة المرأة له في الحقل، نجده يتنازل عن شرط البياض، ويقبل بالسمراء، شريطة أن تكون «نغشة»: «فسمراء نغشة، ولا بيضة، ودفشة»؛ و«يا بشعة، كوني نغشة». ويستحسن، أيضًا، أن تكون طويلة، لأن «الطويلة طالت التينة، والقصيرة ظلت حزينة»؛ و«إن وقفت بتبيِّن، وإن نطقت بتزيِّن»؛ بمعنى أن تكون ذات جمال، وخُلُق، والمقصود في الخُلُق، أن تكون مطيعة، حنونة، رزينة، ذات بال طويل، وعقل راجح؛ «فالسعادة بثلاث: الدار الواسعة، والمرة المطيعة، والفرس السريعة». ويقال، أيضًا: «قرد موالف، ولا غزال مخالف»؛ و«جحش تركبه، ولا غزال يعنفص منك»؛ و«العقل زينة، واللي بلاه حزينة». لكن أي عقل، والأمثال ترى المرأة بنصف عقل؟! إن العقل الذي تتطلبه الأمثال الشعبية، هو تحفُظ المرأة في إظهار أحاسيسها، ومشاعرها، وانفعالاتها، حتى في علاقتها بزوجها؛ «قلة المزاح هيبة، وكترته عيبة»؛ و«كل النسا حبَّت رجالها، وحبك يا رعنة زوَّد»؛ و«القوة بدها قوي، والغناج بده راحة»! يمكن فهم هذه الأمثال على أرضية قهر المرأة، ومصادرة

حقها في التعبير عن ذاتها، إلا في الحدود التي يسمح بها الرجل، وإلا فهي رعناء، عابثة، ومصدر خطر. فضلاً عن أن الرجل المسحوق، المستلب يصبح عاجزًا عن التعامل، بشكل إنساني، مع الآخرين، وفي مقدمتهم زوجته، بل إنه كثيرًا ما يضربها، ويضطهدها، دونما سبب، إنما للتنفيس عن اضطهاد المجتمع له، والمثَل، عندها يلخص هذه الحالة، يقول: «الناس بتضربني، وأنا بضرب مراتي»؛ إنما يقصد إعطاء الرجل مبررًا لضرب المرأة، وإعطاء المرأة مبررًا لقبولها بضرب الزوج لها، رغم أن هذا من أقصى حالات القهر التي تتعرض لها المرأة.

٣- أن تكون مدبِّرة: يشترط في المرأة أن تكون مدبِّرة، بمعنى اقتصادية، وقليلة الطلبات، حتى تساعد الزوج، وتعينه على الزمان. «المرأة دولاب، والرجل جلاَّب»؛ و«الرجل جنَّا والمرة بنَّا»؛ و«المرة عمارة»؛ و«مين رقَّعت ما عريت، ومين دبَّرت ما جاعت». ونجد الأمثال الشعبية تنتقد المرأة المسرفة، المبذِّرة، فتقول: «أنا بوفِّر، والقرِّد بيعفِّر». كما يستحسن أن تعاف المرأة الزينة، والتجميل، لأن في ذلك مصروفًا بلا جدوى: «وجه دهان، وبطن جوعان»؛ و«من برة رخام، ومن جوة صخام».

٤- السن: يجب أن تكون المرأة صغيرة السن، حتى تكون مؤهلة للإنجاب، والعمل، والعطاء. فنجد المثل يقول «يا ماخد الصغار، يا غالب التجَّار».

في هذا دلالة واضحة على البعد الاقتصادي لعملية انتقاء الزوجة؛ كذلك المثَل «بنت الستين بدها سكين»، كونها غدت عاجزة عن الإنجاب، والعمل؛ فأصبحت، بذلك، مفتوحًا، يحتاج إلى من يطعمه.

إلا أن الأمثال الشعبية تحذِّر من الصغيرات جدًا، فتقول: «خذ النسا قبل العشرين، واتركهم بعد الأربعين»؛ لأن الفتاة قبل العشرين تكون مندفعة، متطلبة، لايقدر الرجل البسيط الحال على تلبية طلباتها. أما المرأة بعد الأربعين، فتصبح

عاجزة عن الإنجاب. وعلى الرجل تركها، والزواج من أُخرى، تنجب له الأولاد. حتى لو كانت غنية جدًا: «يا ماخد القرد على ماله، راح المال، وبقى القرد على حاله»؛ و«اللي بيتجوز أكبر منه، بيكبر همه».

٥- **زواج الأقارب:** تنصح الأمثال الشعبية بالزواج من الأقارب، حفاظًا على الملكية الزراعية، والثروة، وحمايتها من التبعثر، والتشتت، وتسربها إلى خارج العائلة، بالإضافة إلى أن ابن العم في المجتمع الزراعي، ملزم بابنة عمه، سواء كانت زوجته، أم لم تكن: «إذا ما شالها كَرَمْ، شالها لَزَمْ»؛ و«لأن بنت العم بتصبرع الجفا»؛ و«خود بنت العم ولوبارت». خاصة وأن الزواج من بنت العم أقل كلفة، وأرخص مهرًا؛ ومن هنا أعطت الأمثال الحق لابن العم في منع زواج ابنة عمه من غريب، في حال أراد هو الاقتران بها؛ حتى على غير رغبة منها. كما أن له الحق في الاختيار بين الغريبة، وابنة عمه، وفق منفعته، وهواه .هذا الحق محجوب عن المرأة، فليس لها أن تختار، بمجرد أن أرادها ابن عمها زوجة له: «اللي بتحرَّاها ابن عمها، بتحرمع الغريب»؛ و«ابن العم بينزِّل عن الفرس»؛ و«ابن العم بياخدها من جلوتها(*)».

تتداخل الأمثال، أيضًا، داعية إلى الزواج من بنت البلد، إن لم تكن من القريبات، فـ«زوان البلد، ولاحنطة جلب»، «زوان بلدنا، ولا قمح الغريب»؛ و«اللي ما بياخد من سِره، دق البين صدره»؛ و«خود من جنسك، ومن غير جنسك لأ»؛ لأن بنت البلد أكثر قدرة على تفهم ظروفك، والتكيُّف معها؛ أما الغريبة فمهرها غال، كونها ستبتعد عن أهلها، وأقرانها. كذلك فالغريبة متطلبة: «الغريبة بدها توب يجرّ، وخابية تهرّ، وزلمة مُرّ»؛ حتى يستطيع وضع حد لطلباتها. كذلك فلها أن تزور أهلها، بين الحين والآخر، الأمر الذي يستدعي الكثير من الهدايا. مما يؤثر، سلبًا، على الوضع المالي للزوج، إضافة إلى ذلك، فإن الزوج مضطر إلى تدليلها، خوفًا من

(*) ليلة زفافها.

غضبها، ومغادرتها البيت، دون رجعة، حيث سيضطر إلى مصالحتها، عبر تقديم الكثير من الهدايا غالية الثمن، إليها وإلى أهلها.

يعتبر فصل المهر، أو الصداق، الخطوة الأولى في حياة الشابين، وفصل المهر مهمة الآباء. وفي هذا يقال: «اللي بده يصاهر ما بيقاهر»؛ و«خلي السمن بجراره، تتجي أسعاره». وكثيرًا ما يحدث أن يعجز العريس عن دفع المهر إلى والد عروسه، فيقدم أخته قربانًا لزواجه، بأن يزوِّجها من أخ العروس، أو أبيها، رغم ما تحمله هذه العادة (البَدَل) من أضرار لجميع الأطراف، في حال عدم استمرار الحياة الزوجية بين طرفي هذه العلاقة.

٦- **الزواج**: بعد فصل المهر، يقوم الأب بقبض الثمن، ليتسنى له تهيئة ابنته وتجهيزها، وكثيرًا ما يضطر الأب لأن يدفع من جيبه، كي يستوفي مستلزمات تجهيز ابنته وأشيائها؛ لذا نجد الأمثال تقول: «تجارة البنت خسارة»؛ و«ادفع من جيبك، واستر ولِّيتك». هذا الثمن يزيد، أو ينقص، تبعًا لحالة الفتاة؛ كون الزواج، في حقيقته، في المجتمعات الشرقية، عملية بيع وشراء، يخضع لقانون العرض والطلب. لذا فإن البضاعة الجيدة، تختلف عن البضاعة المستعملة؛ فتكون الأولى أكثر قبولاً، وأغلى ثمنًا. هنا تصبح البكارة قضية مهمة، والحفاظ عليها من أولى مهام الرجل، وسببًا لقلق الفتاة، على اعتبار أن الفتاة من ممتلكات الرجل، اجتماعياً، وتعتبر من مناطق نفوذه، وتحت سيطرته. ولتحقيق هذه الغاية، يغرس الرجل الكثير من الكوابح والقيود، في ذهن المرأة، حتى تصبح أكثر قمعًا لذاتها، من قمع الرجل لها، كونه لن يستطيع قمعها، ومراقبتها بذاته، طوال الوقت، فعيَّنَها، هي، حارساً على مِلكِيَّاته، وهي الأمر نفسه زي الجزاز(*)»؛ و«هم البنات للممات»؛ و«طريق البنات شوك [illegible] همها واصل لي».

(*) الزجاج.

بعد قبض الثمن، تتم عملية عقد القران، أو كما يسمى «إملاك»، وبموجبه تنتقل ملكية المرأة من أبيها، إلى زوجها، وكأننا لانزال في سوق النخاسة، مع فارق بسيط، حيث بتنا أكثر تهذيبًا من قبل؛ إذ تتم عملية عرض المحاسن، وإتمام الصفقة داخل البيوت. وفي هذا يقول المثل «أبوي باعني، وزوجي اشتراني»؛ و«قوم باعوك، وقوم شروك»، وهو ما يرسخ في وعي المرأة، ضرورة ولائها لمن اشتراها، في الوقت الذي باعها فيه أبوها، ما يعني نقل ولاءها من الأب، للزوج، وبالدرجة نفسها من التقديس، والتبعية، التي كانت تحكم علاقتها الأولى، مع أبيها.

عندما تأتي المرأة إلى بيت الزوج، يتأملها الزوج، مليًا، فلا يرى فيها سوى جسدًا معطَّرًا، أُعد خصيصًا لهذه اللحظة، لحظة يبدأ فيها الإشباع الجنسي للزوج، وليست لحظة بدء علاقة إنسانية، مفعمة بالمشاعر، والدفء الإنساني، والعطاء المتبادل، القائم على علاقة إنسانية متوازنة، في الحقوق، والواجبات، بين الطرفين، فيما يتعلق بالعواطف، والأحاسيس، قبل ما يتعلق منها بالنواحي المادية. وهنا يفكر الرجل فيما إذا كان هذا الجسد يستحق، فعلاً، الثمن المدفوع فيه. ويعكس المثل الشعبي، بوضوح، هذه القضية، عندما يطرح خيارًا على الزوج بين أهله، وزوجه. فنجد الزوج يختار الزوجة. ليس لأنها شريكة حياته؛ بل لأنها موضوع جنسي، يروي الظمأ: «قال أُمك والا أُختك؟ قال اللي بتغنج تحتك».

ولأن الرجل هو من يدفع الثمن، فله وحده، الحق في تثمين هذا الجمال، والتمتع به، والمثل الشعبي يقول: «شوف المنيح تستبيح».

إجمالاً، للرجل الحق في ممارسة كل ما يساعده على ترويض زوجته، وفرض سيطرته عليها؛ انطلاقًا من فكرة أنه دفع ثمنها: «أنا دفعت حقك يا ولية»! وحقها هو مهرها. تشجعه في ذلك الأمثال الشعبية: «ادبح بسَّك(*) يوم عرسك»، وما على

(*) بسَّك: قِطك.

المرأة سوى الطاعة، والتفهم، وإلا فقانون عقوبات الزوج، سيف مشرع فوق رأسها، حيث الضرب، والهجر، والتهديد بالزواج من أخرى؛« اجفوهن تلقوهن»؛ و«العصا من الجنة»، و«بدل ما تقول للقطة بس، اضربها واكسر رِجلها»؛ و«كيد النسا بالنسا، ولا تكيدهن بالعصا». كل هذا حتى يتمكن الزوج، آخر المطاف، من الانتفاع بهذا الكائن، الهادىء اللطيف، إلى أقصى درجات الانتفاع!

وإذا حصل شقاق بين الزوجين، فإن الوجدان الشعبي، يُقَزِّم المرأة إلى الحضيض، إلى مستوى الحيوانات، فينصح الزوج على «لف سِنها على رقبتها، وقول لها يله الدرب اللي جيتي منه»، فهي ليست أكثر من حيوانة، اشتراها الزوج، ويريد أن يعيدها إلى أصحابها الأصليين.

٧- **المرأة والولادة:** تتأتى أهمية الذكر، من خضوع مجتمعنا لمفاهيم العائلة في المجتمع الزراعي، حيث تلعب كثرة العدد من الذكور دورًا مهمًا وأساسيًا، بالنسبة لتقييم وزن العائلة، وقدرتها الإنتاجية اقتصادياً، وبالتالي علو مكانتها الاجتماعية. لهذا نجد موقع الذكر متقدم على الأنثى، وأعلى مرتبة منها. نتيجة لهذا الوضع، نجد المرأة، بمجرد زواجها، تعيش حالة القلق، والخوف من عدم القدرة على الإنجاب، من جانب، أو أن يكون إنجابها ذكوراً، من جانبٍ آخر، لأن هذا سيفقدها مبرر وجودها، ومكانتها في المجتمع، وسيطيح بزواجها؛ فالمرأة ليست أكثر من رحم، قيمته في درجة خصوبته، وتحديدًا في قدرته على إنجاب الصبيان، وعندما يُستنزف، تُهمل المرأة، ويتحول الرجل، السيد، عنها، إلى غيرها[1]. والأمثال الشعبية، تؤكد هذه النظرة الاجتماعية، من خلال قولها: «لا تشوفها عروس مجلية، شوفها حبلة بكرية»؛ و«يسبقِك بالمال تسبقيه بالعيال»؛ و«اللي ما بتحبل من ليلتها، يموت بعلّتها»... و«الشجرة اللي ما بتثمر، قطعها حلال»؛ و«المرأة عدد، والرجال مدد»، ما

(١) صحاري، مصدر سبق ذكره، ص٢١٢.

يعلي من شأن الأبناء الذكور، على البنات الإناث. كما يعنى أن المرأة في الأربعين، تصبح عاجزة عن الإنجاب، أما الرجل فلا، لهذا يمكنه أن يستبدل المرأة بثانية، وثالثة.

لعل من نافلة القول بأن المرأة إنما ترغب في إنجاب الذكور، لاعتقادها بأنها بذلك تدعِّم مركزها أمام الرجل، من خلال إنجاب ذكر آخر، يشكِّل مظلَّة وحماية لها، تقيها عسف الزوج، ورعونته؛ دون أن تدري بأنها، بذلك، تكون المتواطئة الأولى على مصالحها الحقيقية، كونها تكرِّس، بهذا المنهج، دونيتها، ورضوخها للرجل، ورؤيته النفعية الاستعلائية، بدلاً من السعي إلى خلق علاقة متكافئة بين الطرفين.

عند الولادة، تكون العائلة بجميع أفرادها في انتظار المولود ، فإذا صرخت قائلة: «صلين على النبي»؛ فإن المولود ذكر، وإذا صرخت قائلة: «الحمد لله على سلامتها»، يُفهم بأن المولودة أنثى، وكأن الأم أنجبت ولدًا مشوَّهًا، أو ميتًا، لكن الوالدة بخير؛ والأمثال الشعبية تقول: «صباح الحيَّة، ولا صباح البنية»؛ و«مصائب الدنيا أربع: الديْن، ولو درهم، البنت، ولو مريم، والغربة، ولو ميل، والسؤال، ولو أين الطريق». في حين نجد لسان حال الحماة يقول: «مبغوضة وجابت بنت»؛ و«قردة وجابت بنت». فالبنت مستهلِكة في بيت أهلها، وخيرها لدار زوجها، فيما بعد؛ وهي رمز المتاعب، سواء قبل الزواج، أو بعده؛ «البنت بتجلب العار، والمعيار، والعدو لباب الدار»؛ و«هم البنات للممات»؛ و«المرأة بتتعِب أهلها، ولو ماتت»؛ و«اللي بتموت بنيته، بترقص العدرا عباب بيته»؛ و«اللي ماتت وليته، من صفاء نيته».

يقول الذكر، فيما لو أنجبت زوجته ولدًا ذكرًا: «قالوا لي ده غلام، انسند ظهري وقام»؛ و«وقالولي بنيَّة، انهالت الحيطة عليَّ»؛ فالولد محمودٌ، ولو مجنون، أو معتوه، وعلى هذا يقال: «أُم الولد بخير، وأم البنات بويل»؛ و«عليك بالأولاد، ما أقل همهم، حتى لو مشوا مشلَّحين، ورا أُمهم»؛ و«ألف ولد مجنون، ولا بنت خاتون»؛

و«للصبي فرحة، ولو قد القمحة».

تتنفس الأم الصعداء، بمجرد معرفتها بأنها أنجبت ذكرًا، فالآن، وحسب، ثبَّتت وجودها في الدار، أو كما يقال :«دقَّت أوتادها». فهي أُم الصبيان، وستربع، في المستقبل، على عرش البيت، سيدة آمرة، على عدد من الكنَّات(*)، والأطفال، وفي هذا يقول المثل :«حبلى، ومرضعة، وقدامها أربعة»، و«طالعة الجبل، تجيب دوا للحَبَل»؛ و«أُم ثمانية، عروس ثانية»؛ و«أُم ولد قايمة، وأم عشرة نايمة».

بسبب أهمية الأولاد في حياة الأُم، وحمايتها من الزوجة الثانية، نجدها تلتصق بهم، وتعمل على حمايتهم، ورعايتهم. إلا أن الخوف من فقدانهم، والقلق على مستقبلهم، مع تضخم الإحساس بالعجز، والقهر، وقلة الحيلة، وانعدام الوسيلة، لمواجهة الخطوب، والتصدي لها، كل هذا، يدفع الأهل، خاصة الأُم، إلى التشبث بالخُرافة، لتحصين الأولاد بالأحجبة، وحمايتهم بالنذور: «ربَّيتك يا ولدي كل شبر بنذِر»؛ و«بدعي ع ولدي، وبكره اللي بيقول آمين». حتى باتت النذور الوسيلة الممكنة لإرضاء الولي، كي يتدخل إلى جانب الأم في كل مأزق صحي، واجتماعي تتعرض له في حياتها؛ أو تفترض أن أولادها قد يتعرضون له. خاصة إذا كان أولادها غائبين عن عينيها، فتنذر النذور لحمايتهم، من هَم الغربة، وآلامها. ولهذا كثيرًا ما يقال: «بيت الشباب عذاب». رغم أن الحياة اليومية أكدت للمرأة عدم جدوى هذه الأساليب، في معالجة الواقع: «عمر دعوة ما خرقت قميص، ولاغنية جوَّزت عريس».

المرأة الأرملة: «الزلمة عمود البيت، ديم(**) العمود حاضر، والبيت عامر». يلخص هذا المثل، وضع البيت، وقد ذهب عموده؛ فالمرأة، وهي بحاجة لحماية

(*) الكِنَّات: جمع كِنَّة، وهي زوجة الابن.

(**) ديم: ما دام.

الرجل الاقتصادية، والاجتماعية، والنفسية، تصبح، ما بين ليلة وضحاها، بلا حماية من أي لون، بل يتغير اسمها من زوجة فلان إلى «أرملته»؛ مما يُدخلها، فورًا، إلى دائرة الشبهات، كامرأة بلا حماية، بلا رجل، مثل «بستان، بلا سياج». وبسبب فقدانها الحماية العاطفية، نجد الأمثال الشعبية تصور الأرملة على أنها مستعدة، دومًا، لبناء علاقة ما، وقتما تتاح لها الفرصة. ولذلك يُقال عن الرجل الذي يتربص بالنساء «متحضّر، للي بيموت جوزها»[1]؛ و«أعزب دهر، ولا أرمل شهر».

والحق، أن المسألة أكثر تعقيدًا من ذلك، فوفاة الزوج، المعيل الاقتصادي، يعني الفقر والحاجة، بالإضافة إلى الحرمان الحسي، والعاطفي. لهذا يقال «مرته خسرته، وأمه أكلت حسرته». فيكون أمام الزوجة، إما ترك الأولاد، والعودة إلى بيت أهلها، أو البقاء معهم، والعمل على إعالتهم، وإعالة نفسها؛ الأمر الذي يُضعف من مكانتها في المجتمع، فتغدو من المساكين، الذين تجوز عليهم الصدقة ، ويغدو بيتها أقل كرمًا وجودًا؛ وعادةً، يُضرب المثل بفقر الأرملة، وإدقاعها. حتى أنه بات يُضرب المثل بها، في حال رفض الضيف ضيافة مضيفه. فيُقال له: «ولو! هو بيت أرملة»؟!

من الواضح أن هذه الفكرة، تشكل النقيض، تمامًا، لوضع المرأة في الوجدان الشعبي، فهي هنا أُم مضطرة إلى الخروج للعالم الرحب، والتعامل معه، مسقطة عنها ثوب الاستكانة والخنوع، الأمر الذي يعني إدراكها لذاتها، وقدراتها. وهو ما يفرضه الوجدان الشعبي، فنجده وقد أطلق عليها صفات بعيدة، كل البعد، عن المرأة؛ فهي «أُخت الرجال»؛ و«بمئة زلمة».

في أحيان أخرى، قد تكون الأرملة غنيَّة، فلا تعاني الفقر، والعوز، لكنها تعاني ضغط أخيها الساعي الى تزويجها، مما يضطرها إلى دفع رشوة له، تسمى في الثقافة

(١) الزريعي، مصدر سبق ذكره، ص١٤٣.

الشعبية «الخطانة»[1]، تساوي المهر الذي يدفع للأرملة، كما أنها تعاني من ضغط أهل زوجها، في حال أجبروها على الزواج من شقيق الزوج المتوفي، خاصة في حال ترك ثروة باسمها، كمحاولة للحفاظ على ثروة العائلة من الضياع.

أما إذا تزوجت الأرملة، طلبًا للحماية الاقتصادية، والاجتماعية، والنفسية، والجسدية، فإنها لا تلبث أن تصحو على حقيقة مؤلمة، مؤداها أن الزوج الجديد يرفض التعامل مع أولادها، «يا ماخد الأرملة إيش بدك فيها والقاروط[*] حباريها»، والحل المعتاد، في هذه الحالة، هو طلاق الأُم، التي تصبح أرملة ومطلقة، في آن، «إيش بيريحك من القاروط، قال طلاق أُمه».

تحذر الأمثال الشعبية، عمومًا، من الزواج بالأرملة؛ لأن هذا الزواج لايحمل إلا العذاب، والنكد، ويقصِّر العمر فـ«طولة عمرك ثلاث كلمات: أخذك البنات، وركبك المشواط، ومشيك على النيات».

ثقافتان: حاول الإصلاحيون الحد من الآثار السلبية للأمثال الشعبية، على واقع المرأة، التي تعتبرها ناقصة عقل ودين، «النسوان ناقصات عقل ودين»؛ وناقصة خُلق، «النسوان بسبع شهوات»، وهناك النقص النفسي؛ «بتستحي من الديك وزغبوبة الأبريق»، وثمة نقص اقتصادي، «الرزق في أجرين[**] الرجال»، والنقص في الإخلاص والوفاء، «المرة بتحب يوم، وبتكره أربعين يوم». فعلى هذا الأساس تختَّل العلاقة بين الطرفين، اختلالاً جوهريًا، لدرجة يُصبح معها تشبيه الرجل بامرأة، إهانة كبيرة له: «كلام رجال، وكلام نسوان»؛ و«إنت مرة»؟! حتى في الموت، يكون وقع موت المرأة، غير وقع موت الرجل: «اللي ربها بتمم سعادتها،

(١) المصدر نفسه، ص١٤٦.

(*) القروط: الأولاد.

(**) إجرين: أرجل؛ والمقصود أن جلب الرزق مهمة الرجال، وحدهم.

بيطلع جوزها بجنازتها»؛ و«إن ماتت أختك انستر عرضك»، و«إن مات أخوك انكسر ظهرك»؛ و«موت البنات من المكرمات».

لذ سعى الإصلاحيون إلى ثقافة شعبية، تنحاز للمرأة، في محاولة إلى إعادة التوازن للمجتمع، وللعلاقات الاجتماعية فيه، عبر دفع المرأة قدمًا إلى الأمام، دون إخراجها، كليًا، من واقعها الاضطهادي. إلا أنها ترى في المرأة طرفًا مشاركًا في الحياة الاجتماعية، وفي العملية الإنتاجية. فالمرأة التي «تهز السرير بيمينها، تهز العالم بيسارها»؛ و«الجنة تحت أقدام المهات»، و«الحرَّة سبع، والكلاب جلاب»، «حرة الزين بتمشي بصفين».

عن الجمال، تقول: «جوعة على جوعة، بتخلي الصبيَّة زوعة، وشبعة على شبعة، بتخلي الصبيَّة شمعة»؛ و«لبِّس البوصة، بتصير عروسة»؛ و«لبِّس الخنفسة، بتصير ست النسا». فتراجع جمال المرأة، مرده واقع الاستغلال، والاضطهاد، لأن زوال نضارة المرأة، سببه الإرهاق، والعمل المضني، والجوع.

إلا أن هذه الأمثال ترى بأن إسهام المرأة في الحياة العامة، مشروط بضوابط وضَعَها الواقع الاجتماعي – الاقتصادي، المحدد تاريخيًا، في علاقة جدلية معقَّدة.

تلتقي، هنا، هذه الثقافة، مع تلك التي طرحت موقفًا رجعيًا من المرأة، كون الاثنتين تنطلقان من الواقع الاقتصادي، والاجتماعي، القائم على استغلال طبقي، لا تستطيع المرأة التحرر من بين فكيه، مهما ارتقى دورها في المجتمع.

الحق يقال بأن المرأة، اليوم، عمومًا، والفلسطينية، على وجه الخصوص، استطاعت، بعد نضالات طويلة، أن تتخطى سورها، وتخرج للنور، طلبًا للعِلم، والعمل، حتى باتت النساء العاملات يخرجن بالملايين، كل صباح. غير أننا لانزال نلمس تناقضًا واضحًا بين واقع المرأة الفعلي، ومنظومة القيم التي تحكمها، مرده، إلى أن ارتفاع نسبة العاملات، لا يعني تغيير في واقع المرأة، أو تحررها. رغم أن

التحرر الاقتصادي شرط أساسي لكل تحرر، من أي نوع كان، لكن يعوزنا الانتباه، إلى أن مطلب العمل للمرأة، لم يأت كضرورة لتأكيد ذاتها، وبناء شخصيتها الإنسانية، من الوجهة العقلية، والاجتماعية، والثقافية، والأخلاقية ... وغيرها. فالمرأة، كالرجل، تحتاج العمل، ليس كنشاط اقتصادي، هدفه توفير حياة أفضل؛ إنما لكونه، في المقام الأول، نشاط وجودي، من خلاله يشرع الإنسان، رجلًا كان أو امرأة، في توسيع إدراكاته الحية، ويبدأ باستخدام عقله في التفكير. الأمر الذي يفيد في تطوير الشخصية الإنسانية بأوجهها المختلفة. وهذا يؤدي بدوره إلى خلق علاقات اجتماعية، وسياسية، جديدة، ومتقدمة. لاتعود وتقتصر على نطاق الأسرة، وحدها بل تتعداها لتشمل النوع الإنساني، كله[1].

إلا أن هذا لن يتحقق، إلا إذا سبقه شرط أساسي، يقضي بضرورة التخلي إجتماعياً، عن الذهنية المتخلفة، لحساب ذهنية علمية، عبر تبني الجهات الرسمية الحكومية خطة تعليمية، عمادها التفكير العلمي، والتحليل النقدي، وسيادة العقل، وإشاعة جو من الديمقراطية الحقيقية، لأنها وحدها تجعل الحوار ممكنًا، وتفتح الطريق أمام قانون التناقض، تلاقي الـ«مع» والـ«ضد»، في علاقة الجدل[2]. يستتبعه تغيير في القوانين الوضعية، بما يكفل المساواة التامة في الحقوق والواجبات، بين المرأة والرجل. عندها، فحسب، تكون قضية تحرر المرأة، قد وضعت في إطارها الصحيح.

(١)د. حامد خليل، المرأة والعمل، النهج، (دمشق)، خريف ١٩٩٥، العدد الخامس، السنة الحادية عشرة، ص٧٨-٨٠.

(٢)حجازي، مصدر سبق ذكره، ص٨٣.